

عصمة الأنبياء في القرآن الكريم

(74) الرسل، وأدركوه بمشاعرهم وعقولهم مثل سائر الطنون التي تحقق بالقلوب البشرية وتنقدح فيها. مع أن المراد غير ذلك، بل المراد أن الظروف التي حاقت بالرسول بلغت من الشدة والقسوة إلى حد صارت تحكي بلسانها التكويني عن أن النصر الموعود كأنه نصر غير صادق، لا أن هذا الظن كان يراود قلوب الرسل، وأفئدتهم، وكم فرق بين كونهم طائنين بكون الوعد الإلهي بالنصر وعداً مكذوباً، وبين كون الظروف والشرائط المحيطة بهم من المحنة والشدة كانت كأنها تشهد في بادئ النظر على أنه ليس لوعده سبحانه خبر ولا أثر. فحكاية وضعهم والملابس التي كانت تحقق بهم عن كون الوعد كذباً أمر، وكون الأنبياء قد وقعوا فريسة ذلك الظن غير الصالح أمر آخر، والمخالف للعصمة هو الثاني لا الأول، ولذلك نظائر في الذكر الحكيم. منها قوله سبحانه: (وَذَا الذُّنُونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَطَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) (1) فإن يونس النبي بن متى كان مبعوثاً إلى أهل نينوى، فدعاهم فلم يؤمنوا، فسأل أن يعذبهم، فلمّا أشرف عليهم العذاب تابوا وآمنوا، فكشفه عنهم وفارقهم يونس قبل نزول العذاب مغاضباً لقومه طائناً بأنّه سبحانه لن يضيق عليه وهو يفوته بالابتعاد منه فلا يقوى على سياسته وتأديبه، لاجل مفارقتهم مع إمكان رجوعهم إلى الله سبحانه وإيمانهم به وتوبتهم عن أعمالهم. فما هذا الظن الذي ينسبه سبحانه إلى يونس، هل كان طائناً قائماً بمشاعره، فنحن نجلّه ونجلّ ساحة جميع الأنبياء عن هذا الظن الذي لا يتردد في ذهن غيرهم، فكيف الأنبياء؟! بل المراد أن عمله هذا (أي ذهابه ومفارقة قومه) كان _____ 1 . الأنبياء: 87.